# إضاءة على ملف الطفولة المبكرة

ن. و.

**نلقي الضوء في هذا الملف على التعلم في مرحلة الطفولة المبكرة (1-5 سنوات)، متخذين المنحى الاجتماعي الثقافي ركيزة ومنطلقاً فكرياً. ونرى في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي أن ما يجري في صفوف رياض الأطفال من تعلم يجب أن يحتذي في عملية التعلم في المراحل التعليمية العليا، حيث أن معظم نظريات التعلم هي نتاج العمل مع الأطفال، وربما يكون ذلك هو أحد أهم مبررات هذا الملف. وفيما يتعلق بنظريات التعلم، فقد كان العمل موجهاً في البداية نحو "الفردي"، وكانت نظريات علم النفس هي التي تقود العمل مع الأطفال في المدارس الفكرية الغربية، ونخص بالذكر بياجيه وسكينر. في المقابل، كانت المدرسة الروسية موجهة نحو "الاجتماعي"، وهنا نتحدث عن ليف فيجوتسكي الذي بنى نظريته في التعلم الاجتماعي. ونفتتح الملف بمقالة لفيجوتسكي، حيث عمل طوال وقته مع الأطفال خلال لعبهم في إنتاج نظرياته، وأهمها نظرية "التذويت"، ونظرية "منطقة التطور المجاور".**

يقول فيجوتسكي: "في البداية، حاول علماء النفس اشتقاق السلوك الاجتماعي من السلوك الفردي، وقاموا بفحص إجابات الأفراد في المختبر ودراستها من المنظور الجماعي، وقاموا بدراسة كيف تتغير إجابات الأفراد في مواقف جماعية . . . وهذا شرعي تماماً، لكن السؤال الأهم هو كيف تنبع إجابات الأفراد في سياقات الحياة الاجتماعية".[1]

إن التفاعل الاجتماعي بالنسبة لفيجوتسكي هو الأساس في عملية التعلم، بعكس نظريات التعلم الأخرى التي تنطلق من النفسي إلى الاجتماعي. وفي هذا السياق يقول فيجوتسكي: إن أي عملية تطور ثقافي للطفل تحدث على مرحلتين أو عبر مستويين: الأول المستوى الاجتماعي، والثاني النفسي. فالأول يحدث خلال عملية تفاعل بين-سيكولوجية (interpsychological) بين الناس، ومن ثم عبر مرحلة سيكولوجية داخلية (interpsycological)".[2]

ويضيف أن عملية التعلم هي "تذويت" النشاط الذي حدث في المستوى الاجتماعي. ويعطي فيجوتسكي عملية التذويت أهمية كبرى لتحقيق الوعي، فمن خلال مثاله المشهور حول الطفلة الرضيعة التي تسقط لعبتها يقول: "في البداية تحاول الطفلة إبداء إيماءة ما تجاه اللعبة التي سقطت منها على مسافة بعيدة، في محاولة منها لاستعادتها لكن دون جدوى. هنا لدينا فعل (أي إيماءة الطفلة) غير مجدٍّ . . . لكن عندما تأتي الأم للمساعدة . . . عندها يتغير كل شيء بشكل جذري، حيث تتحول إيماءة الطفلة إلى "إشارة".[3] فمساعدة الأم لها أدت إلى وعي الطفلة بأن الإيماءة يمكن أن تستخدم كإشارة للآخرين لغرض المساعدة. وهنا يقول فيجوتسكي إن الفعل نفسه مر من خلال صيرورتين: الأولى تحول إيماءة متجهة نحو الشيء (اللعبة) إلى إشارة أو خطاب رمزي موجه نحو الآخر، وهنا تحدث عملية التذويت من خلال وجود الآخر، والثانية تحول سيكولوجي داخلي على مستوى الوعي بأن الإيماءة

هي خطاب، وبالتالي تكرس عبر التكرار. ومن خلال هذا الفهم لعملية التعلم في مرحلة الطفولة المبكرة، استطاع فيجوتسكي أن يطور نظرية "منطقة النمو المجاور"، وهي المنطقة التي يستطيع فيها الطفل تعلم أمور معينة فوق قدرته التطورية الفعلية "بإسنادات" من آخرين.

وبما أن للعب دوراً مهماً في عملية بناء المعاني من خلال التفاعل مع الآخرين، فقد خصصنا المقالتين الأولى والثانية عن اللعب والتركيز على الخيال والمتخيل خلال اللعب في عملية التعلم والتذويت والدمج الوثيق بين الأجسام والمعنى، "ففي اللعب ينفصل التفكير عن الأشياء وينشأ الفعل من الأفكار بدلاً من الأشياء". فالمقالة الأولى "دور اللعب في النمو" لفيجوتسكي تعطي بعداً مغايراً لما هو مألوف بأن اللعب هو من صفة الأطفال، وأنه مجرد خيال غير مرتبط بالواقع، بل هو عيش الواقع بطريقة مغايرة وباستخدام الخيال.

أما المقالة الثانية "شذرات حول الخيال"، فهي للمنظر والكاتب المسرحي والشاعر إدوارد بوند، حيث يتحدث فيها عن عقل الطفل وكيفية فهمه للعالم من حوله، وهي أيضاً تأتي ضمن مفهوم بناء المعاني من خلال "الاجتماعي". فبالنسبة لبوند، يُخلق الطفل كوحدة كاملة أو ما يسمى بـ "المونـاد" (monad)، حيث لا يوجد لديه نافذة على العالم ولا أبواب على الزمن،[4] وسرعان ما يبدأ العقل في العمل من أجل إيجاد المعنى والقيمة وفهم العالم، ومن خلالها يمر العقل نفسه في تغيرات معقدة لفهم العالم. وهنا يأتي مفهوم "النفس" (Self) عند بوند، حيث تخلق "النفس" ذاتها خلال عملية التعلم والخبرات، ومن خلال تذويت المعاني والقصص والخبرات المعاشة.[5] وهنا أيضاً يأتي دور الخيال عند بوند في بناء الخبرة المعاشة على شكل خريطة، والخريطة الأولى التي تبنيها النفس يتبعها خرائط أخرى متراكمة من خبرات مختلفة، وبالتالي، فإن النفس هي عبارة عن تراكمات من خرائط بناها الخيال.[6] ويمكننا القول إن الذات عند بوند ليست واحدة، بل متعددة أو "ذوات"، تُعرفها الخرائط الحياتية المتعددة. ويرى بوند أن الذات الأولية -أي تلك التي نشأت أولاً- تتوسط الذوات الأخرى، وهي في طبيعتها بريئة، وما يربطها بالذوات الأخرى هو مفهوم "العدالة" ومفاهيم القيم الاجتماعية.[7] لكن في مرحلة ما، يتم نسج الخيال بالمنطق، فالخيال المنسوج بشيء من المنطقية بالنسبة لبوند هو أساس الأيديولوجيات،[8] والأيديولوجيا نفسها هي "لاشيء"، لأنها تفسد عملية فهمنا لأنفسنا. وهنا يأتي دور الدراما حسب بوند في تحرير النفس من الأيديولوجيات، وتنكشف عملية فهم النفس لذاتها.[9] من خلال هذا التحليل، نرى أن "الاجتماعي" هو جوهر عملية التعلم وبناء الذات، حيث تبنى النفس من خلال تفاعلنا مع العالم والآخر، وتولد الأيديولوجيات -التي هي بالنسبة لبوند عدو الذات- من خلال محاولة بناء المعاني للعالم. وتأتي "شذرات حول الخيال" للحديث عن موقع الطفل، والعقل، والخيال، والنفس، والأيديولوجيا في هذا السياق.

أما المقالة الثالثة، فهي دعوة إلى فهم الطفل من خلال اللعب الحر. فالمقالة تحلل مشاهد مختارة من فيلم (*Recreation*)، وتتحدث عن التحولات النمائية التعلمية التي يبنيها الطفل خلال اللعب، وتناقش بإيجاز الجدلية بين أن اللعب هو إعادة إنتاج الثقافة السائدة وبين أنه عملية إنتاج لمعانٍ جديدة. ومن خلال مقاربة مع ما يقوله إدوارد بوند، يكون اللعبُ الحر بمثابة فهم الذات لذاتها، وعملية يتحرر فيها الطفل من الأيديولوجيا، أما اللعب الموجه الذي عادة ما يقود التعليم في رياض الأطفال، فهو عكس ذلك تماماً؛ أي عملية ربط النفس بالأيديولوجيا. فاللعب الموجه تحكمه قوانين المجتمع والثقافة، وكأن الطفل يمر في عملية إنتاج مدخلات، عمليات، مخرجات، فاعلية،[10] وبالتالي "يمأسَس" الطفل عبر اللعب.

ثم ينتقل الملف إلى السياق الفلسطيني، ليعرض واقع وتحديات التعليم لمرحلة الطفولة المبكرة في فلسطين. وتكتب نبيلة إسبانيولي عن التحديات الناتجة عن الوعي المجتمعي، والأهل، والموارد، والبنية التحتية وغيرها، وتختتم ببعض المقترحات على مستوى السياسات والتأهيل. كما يعرض الملف تحليلاً للقاء حواري عقد في مركز القطان حول التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، حيث تحدثت فيه المشاركات عن تجاربهن في العمل مع الأطفال، كل في مركزه، أو روضته، بالإضافة إلى التحديات التي يواجهنها في تلك المرحلة على صعيد التأهيل والموارد وغيرها. كما تتناول الكاتبة المغربية سعيدة بنكيران في مقالتها «التربية على الحدود . . التربية على الحياة»، الدور الإيجابي للأهل في نمو شخصيات أطفالهم، وفي تحفيز تفكيرهم بإبداع وإنسانية في القضايا التي تشكل بالنسبة لهم المحور الذي تدور حوله اهتماماتهم.

ويعرض الملف أيضاً تجارب معلمات مع أطفالهن، حيث تتحدث ربى ناصر عن تجربتها في قراءة القصة للأطفال، أما فيفيان طنوس فتتحدث عن تجربتها مع الأطفال من خلال الدراما، حيث أظهرت قدرة أطفالها على الحوار وتقبل رأي الآخر. وتعرض كوكب يونس من جمعية دار الطفل العربي- المثلث الشمالي عن تجربتها في المنهاج الشمولي التكاملي كنهج للعمل مع الأطفال في رياض الأطفال التي يشرفون عليها.

ويختتم الملف برحلة حوارية لالتقاط تجارب أطفال ومعلماتهم في روضة "فرح" (دير غسّانة - بني زيد) بقلم مالك الريماوي، حيث يتحدث عن مدى تعلق الأطفال بالمربيات وبالمكان، ويحلل شهادات مديرة الروضة وبعض الأطفال في محاولة للإجابة عن سؤال له دلالات بيداغوجية، وهو: ما سر تعلق الأطفال بالروضة وبمربياتها؟

جميعنا يدرك أن الأطفال في مرحلة مبكرة من حياتهم لديهم قدرة ذهنية خارقة على التعلم والتفاعل مع البيئة، وبناء مهارات ذهنية وجسدية قد لا تتوفر في مراحل عمرية لاحقة. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل يتم استغلال هذه القدرات في رياض الأطفال والمدارس؟ وهل تتناغم النشاطات والبرامج مع هذه القدرات؟ نأمل أن يوفر هذا الملف مادة نظرية وتطبيقية للمعلمين والمهتمين بمرحلة الطفولة، وأن تصل الرسالة بأهمية العمل مع الأطفال لا

عليهم، وأن تكون مرحلة الطفولة المبكرة مرحلة تعلم وبناء فكري تقود عمل المعلمين مع الطلاب في المراحل العليا.

وفي هذا السياق، يسرنا أن نعلن انطلاق مشروع خاص بمرحلة الطفولة المبكرة تحت عنوان "**التكون المهني في الثقافة العلمية لمرحلة الطفولة المبكرة والمراحل الأساسية الأولى**"، ويهدف بشكل أساسي إلى رفع نوعية التعليم في مرحلة الطفولة والمراحل الأساسية الأولى في المدارس الفلسطينية، عبر المرور مع المعلمين والمعلمات المشاركين فيه بخبرات متنوعة، تتمحور حول العلوم، وتتكامل مع مواضيع وحقول مختلفة، وسيبدأ العمل فيه مع بداية الفصل الدراسي الأول 2010.

**محرر ملف العدد**

## الهوامش

[1] Vygotsky, L. S. (1981). The genesis of higher mental functions. J. V. Wersch (Ed. and Trans.), *The concept of activity in soviet psychology*. Armonk: M. E. Sharpe. PP. 164-165.

[2] Ibid. (1981) pp 163.

[3] Ibid. (1981) pp 160-161.

[4] Bond, E. (2000). The hidden plot. Methuen. P. 114.

[5] Sahni, U. (2008). Finding "Self", finding "home": Drama in Education. *Canadian Theatre Review*. Issue 133, p76-85.

[6] Bond, E. (2000). The hidden plot. Ibid. p. 117.

[7] Ibid. (2000).

[8] Kaleem, A. (2006). The Role of Imagination and Ideology in defining Culture in the Works of *Edward Bond*. *Journal of Research (Humanities)*. Vol. XLII-XLV PP 138-153. *http://www.pu.edu.pk/english/jrh/currentissue.htm*.

[9] Ibid. (2006).

[10] Gibbons, A. (2007). The politics of process and products in education. An early childhood metanarrative crisis? Educational Philosophy and Theory, Vol. 39, No. 3.

أطفال روضة مدرسة الفرندز خلال مشاركتهم في أحد الأنشطة.